

الأحد 11-11-2007

72.. عن "المصادقية" وتشكيلاتها

وعدت أمس أن أتكلم عن "المصادقية بالاتفاق الطولي"، لكنني رجحت أن زائر هذا الموقع قد يحتاج إلى التعرف على استعمال (أو استعمال) كلمة ومفهوم "المصادقية" عامة قبل أن أتحدث عن المصادقية بالاتفاق، ناهيك عن المصادقية بالاتفاق الطولي أو التاريخي.

كلمة "مصادقية" لها استعمال أكاديمي حين تعني validity وتشير إلى متانة وكفاءة أداة قياس ما في مهمتها التي حدتها، مثلاً: قدرة اختبار ذكاء على قياس ما هو ذكاء، مع أن هناك اختلافاً حول تحديد الذكاء، ولا تنزعجوا من فضلكم، بقدر ما أن هناك اختلافاً حول ما إذا كانت هذه الاختبارات تقيس الذكاء أصلاً أم لا، فلا تدهشوا.

وعلى ذلك فكل معلومة، وكل مقياس يحتاج من الناس موقفاً ناقداً، وليس بالضرورة حذراً.

الاستعمال الثاني لكلمة مصادقية هو الاستعمال العام الذي يتواتر أكثر في مجالات السياسة والتاريخ، فمثلاً حين نتكلم عن مصادقية بيان الحكومة أو وعودها، نحن نبحث عن مدى ما تحقق من التطبيق الفعلي لما أعلنوه، على مدى جدول زمني (عادةً لإجده).

وبالنسبة للتاريخ فحدث ولا حرج.

حين دعيت مؤخرًا لمناقشة مسلسل "الملك فاروق"، اعتذرت للقناة لتلو الأخرى لسبب بسيط، وهو أنني لم أشاهد المسلسل أصلاً، اللهم إلا لحظات متفرقة بعد عودتي من العيادة متأخرًا. لحظات لا تصل أبداً إلى دقائق، مع أنني سمعت عنه ما كان ينبغي أن يدفعني إلى متابعته، لكنني لم أستطع، ولم أرغب، خاصة بعد أن انقطع عن متابعة كل المسلسلات بلا استثناء، ليس فقط بسبب الوقت، وإنما تحدياً لما شعرت أنه يحيط بي (وبالناس) من عمليات أسميها "الإغراق" و"التشتيت" مع سبق الإصرار، كان أي دائماً يردد بيت شعر جميل يشرح العجز عن الانتقاء حين يختار صياد غزلان أي غزال (ظني) يصيد، كان اسم الصياد "خراش" (هذا هو اسمه أنا مالي! لم أسأل أي فليس هو

الذي سماه)، كان هذا البيت يقول "تكاثرت الطباء على خراش... فلا يدري "جراش ما يصيد". وبالقياس: أدركت سر عزوفك ذاك، حيث "تكاثرت المسلسلات على المشاهد، فما يدري المشاهد ما يتابع"، تراجعته بهدوء، وحُرمتُ حتى من مشاركة مرضى بعض اهتمامهم التافهة ومنها المسلسلات (وهذا من أهم علامات الصحة النفسية!! الاهتمام بالتفاهة اختياراً)، المهم قبيل أغلب الذين دعوتُ إلى مناقشة المسلسل اعتذارى إلا مُعذرة شابة في قناة جديدة متحمسة، قالت لي إنك مدعو لتناقش التاريخ، بمناسبة المسلسل، وليس لمناقشة المسلسل، أفحمتني الشابة فقبلت، وتكلمت - على الهواء - عن "مصادقية التاريخ" (على فكرة البرنامج في الموقع الآن) ، وقلت فيما قلت إن التاريخ - حتى الذي يحكيه المؤرخون، حتى ما يُدرس أكاديمياً ، هو على أحسن الفروض ، ليس إلا وجهة نظر، وأضيف هنا أن التاريخ حتى إذا كان مدعماً بالوثائق، هو يحتاج إلى وقفة متأنية قبل قبول ما يزعمون -ولو بالوثائق- أنه حقائق.

هنا، وقد سبق أن أعلنت مرارا موقفي مما يقوله ويكتبه هذا الخرفي الرائع، أستاذ أجيال الصحافة المتلاحقة، محمد حسنين هيكل حين رحلت أحذر من الاستسلام لما يقول انبهارا بالوثائق التي يقدمها، ثم استعملت لهذا التحذير تعبيرا لا يخصه -شخصياً- بالضرورة أسيئته، "الكذب المؤثق"، أعني به ما يصلنا حين يكون للمؤرخ أو للمحرر أو للراوى موقفا متحيزا (شعوريا أو لا شعوريا) ثم يروح يبحث، أو يعثر!، على ما يؤكد موقفه انتقائيا، فيوثق ما يقول بما يخالف الحقيقة - بقصد أو بدون قصد- أسيئُ هذا الموقف المتحيز المدعم بالأوراق الرسمية "بالكذب المؤثق"، بل إنني حين كنت أجد جدلا خطيرا حول صحة حديث شريف من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم يعتدون بعلم "الجرح والتعديل"، فأذهب إلى منهجية هذا العلم، وأقيسه بأغلب معطيات مناهج التسجيل الموضوعية، وبالأسول الأكاديمية لسعة الذاكرة، ومداه، ثم أستغفر الله العظيم، وأدعو لمن يبلغه (أولا يبلغه) ما بلغني، ولنفسى، بالغفران والهداية، وأنتفع بالحدِيث النافع اللهم شاكرا أفضالهم، مصليا ومسلما على رسولنا الكريم.

ثم جانب آخر يتعلق بالمصادقية التاريخية أيضا وهو مدى مطابقة ما يسمى بالسيرة الذاتية على واقع الحال، وقد أشرت إلى ذلك تفصيلا في يومية سابقة - هرمان هسه -

أما أغرب ما دعاني إلى الشك أكثر فأكثر في مصادقية بعض التاريخ. فهو الاعتماد على صور وتماثيل وآثار وكتابات قدماء المصريين، واستخراج حقائق تاريخية، منها: نفخ ببعضها، ونفسر بعضها، ونعتبر بعضها مقياسا لغيره.. إلخ

ثم خذ عندك استنتاج حقائق سيرة ذاتيه تحليلية نفسية عن مبدع تشكيلى (مثلاً)، مثلما فعل فرويد مع ليوناردو دافنشى، وغيره، أنا لا أرفض أن يكون الإبداع مصدرا للتاريخ

العام، أو الشخصي (كما سيرد حالاً)، لكنني أنبه إلى أنه أيضاً "وجهة نظر"، وزاوية محددة لا ينبغي أن تتعدى مساحتها.

التاريخ ليس هو المكتوب في وثائق التاريخ، لا المتاحة أولاً بأول، ولا الرسمية المخزونة لعدد من السنين ثم يفرج عنها للدراسة، وكأنها الحق الذى ليس وراءه ولا أمامه.

التاريخ الموضوعى الحقيقى هو ما احتوته خلايانا حتى الآن، هو تركيبنا الجبلى وما ترمج في أمهاتنا النووية، نوعاً بعد نوع، وجيلاً بعد جيل، وأسرّة بعد أسرّة، ثم أفراداً تحمله ونسعى به: نشوئه، أو نفسد إنجازاته، أو نرعاه.

ليس معنى ذلك أننى حتى أعرف تاريخ الملك فاروق أروح افحص الدنا DNA من ابنته الأميرة فريال، ولكن ما أريد تأكيداً هو ضرورة البداية مما هو "الآن"، مما هو "نحن" هكذا، صحيح أنه من المفيد أن نخطط بالأحداث التى جرت بدرجة ما، لكن لا بد أن يكون ذلك باللجوء إلى أكثر من مصدر، ومن خلال موقف ناقدٍ طول الوقت.

المصادر المتاحة -الأخرى- التى تؤكد لزوم الاستعانة بها، قبل وبعد الوثائق والمؤرخين، يمكن تعدادها كالتالى:

1. الإبداع المنشور بكل أشكاله وخاصة إبداع الحكى، نحن يمكن أن نعرف على القاهرة، وحقبة مهمة من تاريخنا الحديث جداً، من روايات نجيب محفوظ أكثر من أى مصدر أكاديمى
 2. الإبداع غير المنشور (بالمنع الرقابى أو بانعدام فرص نشره) وقد يكون أهم، لأنه قد يحوى من المعلومات ما يتصف بالصراحة والجرأة أكثر بكثير مما يحويه الإبداع المنشور
 3. ما سجله الوعى الشعبى بما يتيح أن نقف منه موقف النقد لا التسليم، وهذا يشمل تنوعات كثيرة من أهمها:
 - ما سجله الوعى الشعبى الممتد قديماً في أمثال ومواويل وملاحم وسير (السيرة الهلالية مثلاً، وما طرأ ويطرأ عليها من ارتجال وتلوين، شكراً يا عم عبد الرحمن يا أبنودى)،
 - ما ابتدعه يسجله الشباب الآن من لغة جديدة ويسجلونه ويستعملونه (بالاشتراك مع مجتمع "البيئة" كما يطلقون عليه)،
 - ما تسجله "ثقافة الإدمان" خاصة، وما يصلنا من تعرية المرضى خاصة بعد كسرهم
 - ما تسجله الفنون التلقائية والشعبية، والتدين الشعبى في الموالد، والمديح خاصة... الخ
- أكتفى بهذا القدر من المصادر المساعدة لأنبه إلى رأيي في "مستويات المصدقية التاريخية" التى تعرض على الناس عادة
1. مستوى الواقع الواقعى "بما هو" (ونحن لا نعرفه، وقد لا نعرفه مهما حاولنا)

2. مستوى الواقع الحكى (شهادات الشهود على عصر ما، أو فردٍ ما)
3. مستوى الواقع الوثائقي الرسمي، حالاً ومستقبلاً
4. مستوى الواقع الوثائقي الشخصي (بعض الأحاديث المسجلة والسير الذاتية وغير الذاتية).
5. مستوى الواقع الإبداعي، والتشكيلي

.....

- فانظر بعد ذلك كيف نرادف بين آخرمستوى (5) وأول مستوى (1) حين نأخذ ما جاء في دراما أو مسلسل باعتباره مصدرا تاريخياً مسلماً به
- أو انظر كتب التربية الوطنية ، والتاريخ المقررة في المدارس الرسمية
- أو أنظر الوصاية اللفظية السلفية التفسيرية المغلقة، على الواقع الحى المتفجر نورا نحو الأصل...إخ
- هذا ، ناهيك عن عبث الحكام بتاريخ من سبقوهم، سرقة، أو نفخاء، أو تزويراً أو تشويهاً.

.....

أنا لا أريد أن أخلص من كل ذلك إلى أية توصية بإهمال التاريخ،

فقط علينا أن نحسن قراءة ما يصلنا منه،
 وأن نحسن نقده
 وأن نحدد مستواه
 وأن نتحمل مسؤوليته،
 خاتمة

يا خير !!! كل هذا عن المصادقية التاريخية فقط
 كل ذلك ولم ننتقل بعد إلى ما أسميته "المصادقية بالاتفاق الطولى" التي تعلن جهلى، وفي نفس الوقت أستعملها مبعثاً لفخرى أحيانا ؟
 فلنؤجلها إلى يومية لاحقة إذا سمحتم.